الشك في الشعر الجاهلي

La soi-disant poésie anté-islamique.

شرارة نار انبثقت في بقعة جرداء ، تناولت كل ما جاورها ، فاصبحت شعلة عظيمة . هكذا الاسلام ظهر في بقعة صغيرة من جزيرة العرب ، فانتشر هذا الانتشار الهائل ، وما هي إلا سنوات قلائل ، بل ما هي إلا غمضة عين في جفن التاريخ ، اذا هو انبث في سورية ، افتتح مصر ، اخضع المغرب ، اذل الاندلس ، دانت له اقاصي فارس ، واطراف الهند ، واستولى على اواسط آسية ولاطم اواسط فرنسة ايضا ، وجميع البلدان التي امتد اليه لهيبه — امر لم يرو التاريخ مثيلا له ، واندفع العرب في اثره ، فملكوا واعتزوا وصاروا الى شيء لم يكن ليخطر لهم بالمنام ، ولم يحلم به اجدادهم والاباء ، وانما تمكنوا من الدخول الى هذه البلاد والتسيطر عليها وكانت جميعها في اسوأ حالات الاضطرابات الداخلية التي كانت ترهقها ارهاقا وتستنزف دمها وقتئذ . ففي سورية هرقل لاه بالمجادلات الدينية والمباحثات الفلسفية وفي مصر الشقاق ضارب اطنابه بين القبط والروم والمغرب سادته المنازعات الداخلية ، واسبانية ارهقتها التحزبات والخصومات بين الملك والامراء وفارس هدت قوتها الحروب المتوالية ، وهكذا اقول عن باقي الشعوب والدول ، التي استعمروها ، واني لهذه البلدان وهذه حالتها ، ان تقف في وجوه هؤلاء الغزاة ؟ وهذه العصبية الوثابة في الصدور وتلك النار المتأججة في القلوب !!! فهجموا واستولوا عليها وكانت لهم لقمة سائغة وما تربعوا في دست الحكم إلا اخذتهم عزة الملك وانفة السلطة وارتاحوا من الحروب وهدأت اعمال الفتوحات وانقضى عهد الخلفاء الراشدين لانه في ايام هؤلاء ما كان احد يقدر ان يقف في وجههم ولا يعاندهم معاند . ومن تجاسر واهان العرب ايامئذ أو غيرهم بماضيهم ، فما كان الجواب سوى ضربة من هذا السيف ، فهو فصل الخطاب . وفضلا عن ذلك كانت العرب تأخذهم عصبة الاسلام ، فما كانوا يلتفتون إلا الى اعلاء شأوه ورفع مناره وبسط ظله

فلما انقضى هذا الزمن وظهرت دولة بني امية ، تلك الدولة التي اعلت شأن العلم عند العرب ، افاق هؤلاء الغزاة من كبوتهم ، فاذا هم صفر الايدي من الاداب ، وفي بلاد تفوقهم في الرقي والامعان في التمدن . لانها كانت مارست جميع العلوم ونبغت في جميع فروعها وعقدت لها رايات الاولية في اكثريتها ، فتنبهوا وعلموا ان لا بد لهم ان يجاروهم في هذا المضمار وإلّا فليس امامهم إلّا ان يرجعوا من حيث قدموا ثم لا تقوم لهم قائمة بعدئذ ، فنظروا الى الخلف فاذا الاسلام امامهم وفتوحاته ، وما صنعوا في سبيله وما بذلوا لاجله وبه يمكنهم ان يتفاخروا بما فعلوا ولكنهم لقرب العهد به لم يشاؤوا ان يتخذوه كوسيلة للمفاخرة . فنظروا الى ابعد من ذلك الى قبيله فاذا الماضي اغبر لا يبشر بشيء فما هم صانعون ؟ احوالهم ومحيطهم تدعوهم الى ان يثبتوا لمحكوميهم انهم قوم كانوا ذوي مدنية ورقي ، وانه بشر بالاسلام بينهم قبيل ظهوره وغير ذلك ولكن ليس لديهم مستندات ولا كتب ! هنا وقفوا حيارى ! اي شيء ينيلهم مبتغاهم ؟ ليس لهم طريق آمن من الشعر ! فعمدوا الى الرواة والمختلقين وحثوهم ، فذكر الرواة ما يعلق بالفكر وتفنن المختلقون فاختلقوا اشعارا واحاديث كثيرة ، والشعر هو اقرب واسهل ما يتمكن به المرء لاخفاء معايبه وابداء محامده ، وهكذا عمدوا الى الشعر ، وطرقوا بابه ، فوجدوه مفتوحا ميسورا .

لا يحمل القارىء كلامنا هذا على غير محمله ولا يظن اننا ننفي وجود ما يدعى بالشعر الجاهلي ، كلا ! بل اننا بالعكس نؤكد وجوده وان يكن فيه بعض تحريف منهم وتلاعب . وقد قلنا ان العرب لم يعمدوا الى المختلقين فقط بل الى الرواة الصادقين ايضا ولا ينكر الشعر الجاهلي إلّا من كان على عينيه غشاوة وفي اذنيه وقر وبعقله تعصب ، كما اننا لا ننفي وجود كثير من الشعر المنتحل ، لان اولئك المنتحلة انتحلوا الشيء الكثير منه وعليه فقد وجب الشك فيه وكما اسلفنا فقلنا ان الشك في ما رواه الرواة نتيجة لازمة لترقية البحث العلمي فان بين العلماء في اوربة الان من يقول ان الالياذة والاوذسة ما كانت إلّا جملة ابيات اما الباقي فقد نسج خيوطه بعض القصاص بل ان منهم من يذهب الى ان

هوميرس نفسه لم يوجد إلا في مخيلة اولئك الرواة وان الكل انتحال . ولماذا هذا ؟ لان شعر هوميرس هذا يشبه الشعر الجاهلي في انه لم يكن مكتوبا بل قصه الرواة بعد زمن هوميرس . كل هذا مع ما بلغه الاغريق القدماء من المدنية وانشاء في تاريخ آدابهم من الكتب الكثيرة الضخمة . فكيف اذن بالشعر الجاهلي ؟ وليس بين ايدينا تاريخ ممتع كامل لآداب العربية ؟فان ما يدعى عندنا بتاريخ الادب العربي ، ما هو إلا طائفة من المعاني وبعض من اخبار وتاريخ الشعراء والادباء جمعت « بعضها الى بعض بغير فقه ولا احتياط ولا دقة ! » فالواجب يقضي علينا بالشك في اكثرية الشعر الجاهلي لما قدمنا من الاسباب ولاسباب اخرى دينية .ولما كان من التنافس بين الانصار والقرشيين وان بعض الرواة كحماد وخلف الاحمر وغيرهما لم يكن لهم من هم سوى الكسب والفخر ! ... وسناتي ببعض امثلة من الشعر الجاهلي في معرض كلامنا .

ومما يزيد فينا الشك هذه الكثرة المعروفة من الشعر الجاهلي واننا نعلم ان كثيرا منه مفقود كما يخبرنا كتبة العرب ان جزءا كبيرا منه فقد على اثر فتوحات الاسلام بموت كثير من الرواة ومنع تداول ذكر جزء آخر يخالف معتقدات الاسلام او يمس النبي او صحبه بشيء ، فهذه لو بقيت ولم تصادفها تلك العثرات المزعومة لوجدنا بين ايدينا طائفة كثيرة منه ولاحتجنا الى مجلدات ضخمة !!! نعم ! لا تنكر انه منع تداول بعض شعر وقصائد . لامية بن ابي الصلت والحطيئة وغيرهما . وهذا من الثابت لدينا ،فان الاول عارض النبي الحنيف وناصبه العداء فوقعت مشادات كثيرة بينهما والثاني ناجز خلفاء واصحاب النبي . افليس هو صاحب :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لابي بكر !

ايورثنا بكرا اذا مات بعده ؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر !

فكان من دواعي ذلك ان امر بعدم ذكر قصيدة بها اي تعريض بالنبي أو صحبه وانما ما بقي لنا من امثال هذه القصائد تناقله بعض الخوارج فوصل الينا ونحن نشك بقول هؤلاء الكتبة انه وجد ذلك القدر الهائل الذي يلمحون اليه . وهذا بقطع النظر عما يلمحون اليه من اشعار امية بن ابي الصلت وامثاله

من الثائرين على الدين فجميع اشعارهم يحصر في كتاب . وكيف لا نشك في ذلك القدر الموهوم؛ بينما نحن لانؤمن بكل ما لدينا لما نرى بين سطوره من رقة الشعور الفائقة والاحساس الزائد عما يحتاج اليه اولئك الاعراب فلو اتاني امرؤ وسألني لمن هذان البيتان :

لو كان قلبي معي ما اخترت غيركم ولا ارتضيت سواكم في الهوى بدلا
لكنه قد لهـا في من يعذبه فليس يقبـل لا لوما ولا عـذلا

ما ترددت لحظة في نسبتها لعمر بن الفارض فانها تشابه شعره كثيرا ولم يكن ليخطر لي على بال انها لعنترة بن شداد (على حد قول الرواة) وهو اعرابي جلف لم تصقله المدنية. بل ان عنترة اشتهر ببعده عن بذاءة الالفاظ وحوشي الكلام ؛ وامتاز دون اكثر شعراء الجاهلية برقته ورشاقة تعابيره ولكن مهما يكن لا تبلغ به الرقة الى هذا الحد وبين هذه الكلمات ترى آثار الصنعة والتلاعب .الم يبلغ بالرواة ان نسبوا لامية بن ابي الصلت هذه الابيات :

الحمد للـه ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الافاق سلطانا
ألا نبي لنـا منـا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا . الخ

فهنا نراه يتطلب نبيا . مع أننا عرفنا انه من الذين حاربوا النبي وعادوه ، فالرواة اختلقوا هذه الابيات والصقوها به كي يدعوا مجالا للظن ان امية قـد تنبأ بظهور نبي حين ارتجاه ويعتقد به ، وانما معاداته للنبي ما هي إلّا لاسباب شخصية بحتة بينهما . فهذا الاختلاق هو من ضمن الاسباب الدينية التي قلنا انها دعت الرواة الى الانتحال فهم ارادوا ان يظهروا للملأ انه تنبأ بالاسلام وبعث نبي عربي من مكة او من قريش قبيل ايامه باعوام وقرون ، فاختلقوا ماشاؤوا من الاشعار ونسبوها لشعراء الجاهلية وعمدوا ايضا الى طرق اخرى وطرقوا غير باب الشعر .فقد بلغ ببعض الرواة المختلقين في بلاد الافرنج ان الفوا انجيلا دعوه بانجيل برنابا ، وفيه تنبأوا عن بعثة الاسلام او ما يشبهه ، وذكر فيه النبي المبعوث وذلك انهم علموا ان القديس برنابا الف انجيلا ولكنه ضاع ولم يصل الينا . فالفوا هذا ونسبوه اليه وقالوا انهم وجدوه مخطوطا قديما في تلك

الديار. وكل ذلك ليثبتوا ان كبار الاولياء كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي وقد ابان هذا الانتحال كثير من كبار علماء المسلمين فضلا عن المستشرقين.

ومن المضحكات المبكيات نسبة هذه الابيات لعنترة:

فدونكم يا آل عبس قصيدة يلوح لها ضوء من الصبح ابلج!
ألا انها خير القصائد كلها يفضل منها كل ثوب وينسج!

ومثله:

عيلة هـذا در نظم نظمته وانت له سلك وحسن ومنهج!

فما اسخف التعبير! وما اظهر الصنعة؟ ومتى كانت العرب في الجاهلية تفاخر ببراعة نظمها؟ هذه الابيات تشابه قول الزهاوي، شاعر العراق من قصيدته «ايها العلم!»:

تتلى امامك والجمهور مستمع قصيدة لفظها كالدر منسجم
لشاعر عربي غير ذي عوج على الفصاحة منه تشهد الكلم!

هفوة سقط فيها غير الاستاذ الزهاوي من المعاصرين، لو قرأ هذه الابيات اجنبي لضحك ملء شدقيه، واستخف بعقولنا! تصفح اي ديوان فرنسي مثلا، وقل لي بربك هل تجد فيه هذا المديح وهذه المبالغات وهذا السخف؟ لا اظنك تجده. وان جل ما تجده من هذا النوع من المفاخرة والمديح، بعض ابيات عند بوالو Boileau، ذلك الشاعر الناقد المفلق وعند قليل من مثله، ولكن شتان ما بين هذه وتلك! الفرق عظيم في رقة التعابير ورشاقة النظم، وتناسق التركيب وغيره! ونحن لا ندري كيف هفا الاستاذ الزهاوي هذه الهفوة، بينما نعرفه من المجددين الناهضين وسقط في امر ظهر في سوق الشعر ايام كساده!!.

وينسب لعنترة ايضا هذه الابيات:

والنقع يوم طراد الخيل يشهد لي والضرب والطعن والاقلام والكتب

فكأنه المتنبي حيث يقول:

الخيل والليل والبيداء تشهد لي والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فمتى كانت العرب في جاهليتها وفي الحجاز تتقن الكتابة او تعرفها؟ نحن

نعلم ان عنترة كان اميا والعرب جلها لاتفقه القراءة ولا الكتابة بل كان همها الاهم ان تبحث عن معاشها ، وضروریاتها والاخذ بالثار ، وشن الغزوات ولا يشذ عن هذه القاعدة ، سوى من كان منهم متصلا بالروم او الفرس فقد كان فيهم تراجمة وكتبة .فاي طريقة بل اية اعجوبة حصلت فأنشأت من عنترة كاتبا ؟...هنا نستدل على ان اولئك الرواة لم يكونوا ينتحلون الشعر وينسبونه الى الشعراء الجاهليين ، بل انهم كانوا يخبطون فيه خبط عشواء فينسبون هذا البيت لهذا الشاعر وتلك القصيدة لذاك ، بدون فكر ولا روية فلو كانوا اتقنوا الانتحال لقلدوا شعر الشاعر ونسبوه اليه ولبقينا في هذه الاشعار بين الشك واليقين ، ولكن لكونهم لم يتقنوا ما مارسوا زال الشك ، فاذا نسبوا ذلك البيت الى امية ابن ابي الصلت او الى قس بن ساعدة لشككنا في الابيات ولم نقدر على تأكيد الانتحال . ومما يماثل هذه الابيات من قصيدة نسبوها الى السموأل صاحب الابلق ، شك فيها كثير من العلماء ، وفيها مافيها من التكلف :

ألا ايها الضيف الذي عاب سادتي ألا اسمع جوابي لستعنك بغافل
ألا اسمع لفخر يترك القلب مولها وينشب نارا في الضلوع الدواخل
فاحصي مزايا سادة بشواهد قد اختارهم رحمانهم للدلائل

ومنها :

السنا بني القدس الذي نصب لهم غمام يقيهم في جميع المراحل
من الشمس والامطار كانت صيانة تجير نواديهم نزول الغوائل ...(١)

فما اسخفها ! واين هذه القصيدة من قصيدته « اذا المرء لم يدنس » الحماسية ؟ فمن يعارض هذه بتلك « ياخذه العجب من الفرق الذي بينهما من حيث طبقة الشعر وجودة التعبير ولعله صادق على قول مجلة المقتطف التي روت بعض الابيات (سنة ١٨٠٦ ص ٤٠٤) فأوردها الكاتب بهذه الكلمات : « مهما يكن من امرها فهي خديثة كما قال الاستاذ مرغليوث نظمها احد الاسرائيليين ، وتناقلها الحفاظ فزادوا فيها وحرفوها وناظم :« اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه » بريء منها » (٢) .

(١) انظر القصيدة ـ ديوان السموأل ـ طبعة شيخو ٣٧ (٢) ديوان السموأل ٣٩

وفي هذه القصيدة تلاعب ايضا من الحفاظ فاذا صدق الاستاذ مرغليوث في ان احد الاسرائيليين نظمها فكيف نعلل هذا ؟ فهو دون شك لم يختمها بهذا البيت :

وفي آخر الايام جاء مسيحنا فاهدى بني الدنيا سلام التكامل

هذا لم يرو في غير نسخة الموصل ، فأي يهودي يؤمن ان المسيح اتى ؟! اذن لا بد ان احد حفاظها او قل ناسخ هذه النسخة زادها من عنديانه ! وهذا يدلنا ايضا على مبلغ التلاعب والتحريف في تلك الادوار التي مثلها اولئك الرواة والحفاظ والنساخ ايضا في نقلهم الينا اشعار الاوائل على مسرح الادب .

ولا يغر المرء ان يجد بين الشعر الجاهلي لينا وسهولة . فالعربية لم تتغير كثيرا قبيل نصف قرن من الاسلام ، انما الذي تغير في البلاد العربية وعفا اثره منها تلك اللهجات والتمتمات التي كانت سائدة في اليمن وربيعة وبعض احياء العرب ولا يذهب حالا الى ان ذلك اللين فيها دليل على الانتحال بلا تدقيق نظر واعمال روية فهذه ابيات من معلقة ابن كلثوم بها رقة لفظ وسهولة :

قفي قبل التفرق يا ظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا
ففي نسألك هل احدثت صرما لوشك البين ام خنت اليمينا
بيوم كريهة ضربا وطعنا أقر به مواليك العيونا
وان غدا وان اليوم رهن وبعد غد بما لا تعلمينا ... الخ .

فهل يا ترى هذه الرقة في اللفظ هي التي تدعونا الى وسمها انها منتحلة ؟ لنمسخ قصيدة برمتها دون ترو ولمجرد الشك في تلك الرقة واللغة ! ومن ثم يثبت لنا ان عمرا هذا لم يكن متاثرا بلغة القرآن قبيل ظهوره بلغة قريش ؟ واذن لم هذا الشطط وهذا التعسف ! يقول الدكتور طه حسين عن هذه المعلقة : « ان في قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيرا على اقل الناس حظا من العلم باللغة العربية في هذا العصر الذي نحن فيه . وما هكذا كانت تتحدث العرب في منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الاسلام بما يقرب من نصف قرن . وما هكذا كانت تتحدث ربيعة خاصة في هذا العصر

الذي لم تسد فيه لغة مضر ولم تصح فيه لغة الشعر . »! (١) . شيء لطيف! من أنبأ الدكتور هذا ؟ أهمست به اليه العصفورة ؟ أم شيطان الادب ، ادب الاغريق ؟ أم جن الشعر ، شعر العرب ؟ على اي شيء يعتمد حضرة الدكتور في قوله ، ان لغة العرب لم تكن تتحدث هكذا قبيل الاسلام بنصف قرن ؟ أعلى الاثار الباقية في جزيرة العرب، وأين هي ؟؟؟ أم على مخطوطات تلك اللغةالعربية المتقدمة ، واين نجدها ؟؟؟

كنا يعلم ان اللغة باقية كما كانت منذ ظهر القرآن ولم يصبها تغير جوهري ولم يستول عليها الفساد ... دعنا من هذا وأتني بأي قطعة شئت من اي مقال اردت ، ولاي واحد من المعاصرين والمتقدمين ، وتعال قابلها بأي قطعة اخرى لاحد العرب الاقدمين ثم قل لي بربك هل هناك من فرق بين هذه اللغة الشائعة في يومنا ، وتلك اللغة القديمة ؟ لا ! ولا اظنك حاصلا على شيء ! ولكن رويدك ، دعني اتدارك ني فأقول نعم هناك فرق ، وما هذا الفرق إلا نتيجة لازمة لترقي اللغة كما هو دأب اللغات الحية ، وهو ينحصر في استعمال بعض الفاظ شعرية لغوية وحذف بعض كما جرى ذلك في نثر ونظم كل اللغات القديمة وتجده ايضا في اتخاذ بعض التعابير الجديدة دلالة على المعاني المستحدثة فان التعابير الموجودة قديما لا تفي مطلوبنا بل لا تساعدنا على قضاء حاجاتنا في هذا العصر ، عصر العلوم والكهرباء ، فاذا العربية كما كانت باستثناء هذه ، عذراء ، تامة الحسن في شرخ الشباب ، غضة الاهاب لم تعرف الطفولة بل قل لا تعلم شيئا من هذه الطفولة كما انها لم تعرف غضون الشيخوخة ! فكيف يريد منا اذن حضرة الدكتور طه حسين ، ان نؤمن ونصدق ان ما يقرب من نصف قرن كان كافيا ان يجعل هذا الفرق العظيم الذي يتوهمه بين لغة عمرو بن كلثوم والقرآن ؟! ستة عشر قرنا لم تقدر ان تغير في هذه اللغة ما يزعمه تغير في نصف قرن فقط ! فيا عجبا! ان اللغة الانكليزية ولا نقول الافرنسية هي اكثر اللغات التي تتغير بسرعة وتتخذ كثيرا من الاصطلاحات الجديدة الغريبة عنها وتندمج فيها ، فلغة بيرون وتعابيره ، ولغة كيلنج واصطلاحاته ، بينهما فرق يذكر ،

(١) الدكتور طه حسين ـ في الادب الجاهلي ـ ص ٢٣٩ .

ولكن هذا الفرق هو دون ما يرى بين لغة القرآن ولغة الشعراء الجاهليين على حسب قول طه حسين !!!

واننا نرى الدكتور يناقض نفسه بنفسه فيهدم ما بناه . قال هنا ان ذلك العصر عصر ابن كلثوم : « لم تسد فيه لغة مضر ولم تصبح فيه لغة الشعر » وكان قد سبق فقال عند التكلم عن امرىء القيس « فنحن لا نعلم ولا نستطيع ان نعلم الان أكانت لغة قريش هي اللغة السائدة في البلاد العربية ايام امرىء القيس ؟ واكبر الظن انها لم تكن لغة العرب في ذلك الوقت وانها انما اخذت تسود في اواسط القرن السادس للمسيح وتمت لها السيادة بظهور الاسلام(١)» فهو لا يؤكد هنا أكانت لغة قريش قد سادت في البلاد العربية ايام امرىء القيس أم لا ، ويتنازعه الشك فكيف يبيح لنفسه ان يؤكد ذلك حين تناول البحث عن ابن كلثوم ؟ نحن نعلم ان امرأ القيس وجد ونبغ قبيل زمان عمرو بن كلثوم وان يكن نفق على ايامه . فكيف نعلل كلام الدكتور ؟

وقد وقع طه حسين في الخطأ الذي يرتكبه انصار القديم بعينه وعليه لامهم ، الم يسلم تسليما بقصة الفرزدق مع العذارى ، قال : « فالرواة يحدثوننا ان الفرزدق خرج في يوم مطير الى ضاحية البصرة فاتبع آثارا حتى انتهى الى غدير واذا فيه نساء يستحممن فقال : ما اشبه هذا اليوم بدارة جلجل وول منصرفا فصاح النساء به : يا صاحب البغلة ! فعاد اليهن ، فسألنه وعزمن عليه ليحدثنهن بحديث دارة جلجل فقص عليهن قصة امرىء القيس وانشدهن قوله :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولاسيما يوم بدارة جلجل(٢)»

فهنا هوى الدكتور في ما عمل لاجل كتابه فهذه القصة المنسوبة الى الفرزدق ترى فيها الصنعة مجلوة ويحق لنا ان نصفها بالمنتحلة ونضرب بها عرض الحائط . وقصة زيارة امرىء القيس لخليلته « وتجشمه ما تجشم للوصول اليها وتخوفه الفضيحة حين رأته وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها وما كان بينهما من اللهو » اقرب الى العقل وادنى الى التصديق من تلك القصة ! ولما ذا

(١) الدكتور طه حسين ـ في الادب الجاهلي ـ ٢١٧ .

(٢) الدكتور طه حسين ـ في الادب الجاهلي ـ ٢٢١ .

يريد الدكتور ان نصدق قول هذا الراوي ونكذب قول ذاك ؟لو اراد ان نشك في ما يقدمه الينا الرواة وكتاب العرب على معرض الادب لوجب ان نشك في الكل فلانتقي ما يوافق فكرنا ونصدقه ولا نضرب ما لا يوافقه عرض الحائط ونكذبه فأين هذا من النقد الصحيح العلمي ؟ وهل هذه طريقة ديكارت ؟ لا ! نحن لا نقدر ان نعلل هذا التذبذب في كتاب « الادب الجاهلي » وانما نكتفي فنقول « ان مبدأه حسن يجمل بنا ان نتخذه قاعدة في درس الاداب فنشك عند اول فرصة للشك ونبحث في موضوعه دون ان ننفي بطريقة عامة وحكم بات كل الشعر الجاهلي »(١) كما انه يحسن بكل دارس للشعر الجاهلي ان يطلع عليه مع قليل من التحذر ففيه نظريات قيمة وملاحظات ثمينة .

❀❀❀

ونظن اننا لا نأتي شططا اذا ما نسبنا النصر لهذا الشاعر او ذاك . فعنترة والنابغة وامية بن ابي الصلت وقس بن ساعدة وعمرو بن كلثوم والمهلهل وغيرهم من فطاحل الشعر الجاهلي هم نصارى وان تكن قصائدهم لا تتضمن مقاطيع تظهر بصراحة نصرانية اصحابها ... تتحقق ان الشعراء وهم رافعو لواء قومهم لم يكونوا يفترقون عنهم في امر مهم كالديانة ، وفضلا عن ذلك ان خلو أشعارهم من آثار الوثنية ومظاهر اعتقادهم بالتوحيد وبالحياة المستقبلة ، وتعودهم الكثير من الافكار والمؤسسات والاعياد المسيحية ، والتعبير اللطيف الذي يستعملونه لذكرها والذي يلزم كونهم في محيط نصراني او متنصر » (٢) كل هذا يهيىء امامنا برهانا جديدا على صحة نظريتنا فضلا عن ان كثيرا من كتاب العرب ذكروا شيئا عن نصرانية تلك القبيلة ، او ذلك الشاعر .

❀❀❀

نكتفي بما اوردنا عن الشعر الجاهلي وعن اسباب الشك فيه واننا نرى ان هذا الشعر هو خير ما جادت به اللغة العربية وجادت به قرائح الشعراء « وقد اجمع الجهابذة العارفون بنقد الشعر وفنونه الضاربون في سهوله وحزونه ان

(١) فؤاد افرام البستاني – الروائع ج ٢ – الشعر الجاهلي – ص ١٦ .
(٢) الاب لامنس – الاب شيخو والتاريخ – المشرق ٣ – ١٩٢٨ – ٢١٠ .

شعراء الجاهلية ادركوا مقام التبريز بين شعراء العرب لما تميزوا به من متانة التراكيب واستقامة الاساليب والاضطلاع من اخراج المعاني الكثيرة بالالفاظ اليسيرة الا وهم حاملو لوائه وموطدو بنائه. هذا مع بعدهم من سخف الكلام وهجنة التكلف ولا غرو فالكلام رهن خواطرهم والفصاحة أمة مقاولهم » (١)

بركات (السودان) ميشيل سليم كميد

الدوشنة

Les Daushanas.

الدوشنة جمع الدوشن . والدوشن يقابل (الكاولي) عند العراقيين . والنوري عند الشاميين ، والغجري عند المصريين المعاصرين ، وبكلمة اخرى هو ما يسميه الفرنسيون Bohémien . ومن غريب امر الدوشنة في اليمن المناداة بامر الامام وحث الناس على الجهاد وتولي الخطابة في خارج الجوامع . وهذه المهنة عند اليمانيين من الشؤون الشائنة في نظرهم .

يذهب (الدوشن) الى السوق حيث تجتمع الناس من قبائل مختلفة للبيع والشراء ، فيعتلي يفاعا او موضعا مرتفعا ولو قليلا ، فيخطب في الناس بذلاقة لسان وسهولة تعبير ويرغبهم في ما يدعو اليه ، كما يحذرهم مالا يطيب لهم .

والاسواق في اليمن تقوم مرة واحدة في الاسبوع ، وفي كل مرة يكون المجتمع في غير المكان الذي كانت فيه السوق في اليوم السابق . فسوق الخميس في غير موطن سوق الجمعة وسوق الجمعة في غير موطن سوق السبت الى غيرها .

وللدوشن وقوف تام على انساب القبائل واحوالها وتاريخها وشيوخها واشرافها وساداتها لكثرة تردده الى رؤسائها . فمن هذا ترى ان لهؤلاء القوم شأنا يذكر في الحركة العمرانية او الاجتماعية اليمانية .

وترى من هذا ان اسماء « بني ساسان » وهم هؤلاء القوم عند الاقدمين من السلف تختلف باختلاف الازمان والامكنة فيعرفون اليوم في العراق «بالكاولية» وفي سورية « بالنور » (وزان سبب) وعند المصريين « بالغجر » وعند الحلبيين «بالقربانية » وعند الدمشقيين «بالزط» الى غيرها .

---

(١) الاب لويس شيخو ـ رياض الادب في مراثي شواعر العرب ـ ص ١ .